الباب السادس

في الأخلاق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي، ففي الحديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابًا لأرسطو في الأخلاق، ووضع ابن مسكويه كتابًا في صناعة تهذيب الأخلاق، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتابًا في علم الأخلاق، على نحو ما كان يفهم اليونان، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين.

والذي يعنيني الآن هو علم الأخلاق كما فهمه الغزالي. وأقرر أني بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددي الفلسفة اليونانية، وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك، وفقا لما سنته الشريعة السمحة، ورسمه الصوفية، ومن نحا نحوهم من الفقهاء. ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة: فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة، وأخرى يسميه علم صفات القلب، وحينا يسميه أسرار معاملات الدين، وربما سماه أخلاق الأبرار، وهو اسم لبعض مؤلفاته. وأهم كتبه في الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين. فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام، ومن سبقهم من الأنبياء، والصديقين، والشهداء.

وإذا كنا نجد ابن مسكويه مثلًا يستشهد كثيرًا بكلام أرسطاطاليس وجالينوس، ويتحدث عن الرواقيين، ومن إليهم من الحكماء، فإنا نجد الغزالي يؤيد أبحاثه بكلام

ابن أدهم والتستري، والمحاسبي، ومن إليهم من الصوفية، وربما نقل ما روى عن عيسى وموسى، ومن إليهم من الأنبياء.

تعريف الخلق

نرى الغزالي في ص٥٦ من «الميزان» يعرف الخلق الحسن بأنه إصلاح القوي الثلاث: قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب، ونراه في ص٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء. ويستشهد بالحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**» وبالآية {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم}[1]، ونراه يقول في ص٤٧ «**وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها**».

وإنما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة، التي لا تغني شيئًا في التحديد، لندل على ميل الغزالي إلى الخطابيات، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه في الأخلاق.

ولكنه في ص٥٦ ج٣ إحياء عرف الخلق تعريفًا دقيقًا فقال: «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا، سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا» ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح، ولا القدرة على الجميل أو القبيح، ولا التمييز بين الجميل والقبيح. وإنما هو الهيئة التي بها

---

[1] سورة البقرة: ٢١٦.

تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والبذل. ثم قال: فالخلق إذًا هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.

obeikandl.com

الفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالي رأي محدود في الفطرة البشرية: فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شيء، وتقبل كل صورة، وتارة يراها أميل إلى الخير منها إلى الشر. يدل على ذلك قوله: «وإذا كانت النفس بالعبادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى القبائح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه، والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع، يضاهي الميل إلى أكل الطين، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة، فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى، ومعرفته، وعبادته، فهو كالميل إلى الطعام والشراب: فإنه مقتضى طبع القلب، لأنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته، وعارض على طبعه» ص٦٣ ج٣.

وما نريد أن نناقش هذا الرأي بأكثر من أن نلفت النظر إلى أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيرًا عن الميل إلى الطعام والشراب، فهو جزء من الفطرة البشرية، كما أن الميل إلى الخير جزء من الفطرة البشرية، وإنما توجه النفس بمقتضى الظروف. فكما أن المرء لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيرًا أو شريرًا، وإنما يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير، ويظهر ميله إلى الشر حين يوجد موجب الشر. بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غويًا أو ترد الغوي رشيدًا. ولولا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق.

كيف يربي الخلق

يري الغزالي أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته، بحيث لا يحتاج إلى تعليم، ولا إلى تأديب كعيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء. ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب، فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيًّا جريئًا.

وما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الأنبياء لا يحتاجون إلى التعليم والتأديب، ويكفي أن أذكر أن عصمة الأنبياء -في غير تبليغ الرسالة- كانت مما اختلف فيه العلماء، وأن في القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي صلى الله عليه وسلم من الذنوب.

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق: أي حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلًا أن يحصل لنفسه خلق الجواد، فعليه أن يتكلف فعل الجود: وهو بذل المال، حتى يصير ذلك طبعًا له.

والغزالي يهتم كثيرًا برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، ويقول في ذلك:

«كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة. وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب. ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتبًا بالطبع، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة، يحاكي الخط الحسن، فيتشبه بالكاتب تكلفًا. ثم لا

يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعًا، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفًا. فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنًا. ولكن الأول بتكلف، إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب. ثم انخفض من القلب إلى الجارحة، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع. وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه، حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس».

ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد؛ لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس. ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس.

obeikandl.com

الفصل الثاني

إمكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله، فإن تربية الخلق معلقة على إزالة الخلق السيئ. ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن ويقول في ذلك تعليقًا على قوله عليه السلام: «حسنوا أخلاقكم» لو لم يكن ممكنًا لما أمر به، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب، فإن الأفعال نتائج الأخلاق، كما أن الهوى إلى أسفل نتيجة الثقل الطبيعي، بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة».

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أنه الخلق كالخلق لا يمكنه تغييره، وإلا كان طمعًا في تغيير خلق الله. وقد ذكر في ذلك أن خلق الله قسمان: قسم لا فعل لنا فيه، كالسماء والكواكب، وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده، إذ وجد شرط التربية. وتربيته قد تتعلق بالاختيار، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلًا بالتربية، وغير قابلة لأن تصير تفاحًا، وإنما تصير نخلًا إذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها ويقول: «فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه، ولكن لو أردنا قهرهما وإسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه».

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات إلى سريعة القبول، وبطيئة القبول، باعتبار التقدم في الوجود؛ ويقسم الناس في تغيير الخلق إلى أربع مراتب –الأولى: الإنسان الغفل الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح. وهو أقل الأقسام للعلاج: فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع– الثانية: أن يكون قد عرف القبيح، ولكنه لم يتعود العمل الصالح. بل زين له سوء عمله، يتعاطاه انقيادًا لشهواته، وإعراضًا عن صواب رأيه، فأمره صعب من الأول، إذ تضاعفت علته. فيلزم (أ) قلع ما رسخ فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس إلى ضده – الثالثة: أن يعتقد أن القبيح حق وجميل. ويرى الغزالي أن هذا لا يرجى صلاحه إلا على الندرة، إذ تضاعف عليه أسباب الضلال – الرابعة: أن يكون مع وقوع نشوته على الاعتقاد الفاسد، وتربيته على العمل به، يرى فضله في كثرة الشر، واستهلاك النفوس، ويتباهى بفساده، ويراه مما يرفع قدره. قال الغزالي: وهذا أصعب المراتب وفي مثله قيل: من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليبيض. ثم قال. فالأول: من هؤلاء يقال له جاهل، والثاني: جاهل وضال، والثالث: جاهل وضال وفاسق، والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير.

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق إلا قهره وإسلاسه، وقد صرح بذلك في قوله: «وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها، وهيهات! فإنَّ الشهوة خلقت لفائدة. وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على

إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية. بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط».

كيف يعرف المرء عيوب نفسه

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج.

وإذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم، حتى إنَّ أحدهم ليرى القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فقد وضع الغزالي أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس.

الأول: أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته.

الثاني: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا فينصبه رقيبًا على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما ذكره من أخلاقه، وأفعاله، وعيوبه الباطنة والظاهرة، نبهه إليه.

الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوي. ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذمومًا عند الخلق اتهم نفسه به. فإنَّ الطباع متقاربة في اتباع الهوى، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله، أو عن أعظم منه، أو عن شيء منه. فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره.

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالي في هذا الباب إلى القرآن؛ إذ إن الله تعالى ذكر في كتابه صفات المؤمنين والمنافقين، وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق، وسوء الخلق. وبعد أن سرد جملة الآيات قال: «فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض، يدل على البعض دون البعض. فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده» ص٧٤ ج٣.

والظاهر أنه لا يكفي دائمًا أن يتحاكم المرء إلى القرآن، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج إلى تحرير، إذ لا يدري المرء أهو مخطئ في التخلق بها أم مصيب. وقد تنبه الغزالي إلى هذه النقطة في غير هذا الباب، وهو يرى أن المطلوب في علاج البخل مثلًا هو «الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين» ويقول: «فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحظور، فإن كان أسهل عليه وألذ من الذي يضاده، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فزد في المواظبة على البذل. فإن صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك. فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفات إلى المال، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج. ولا يترجح عندك البذل على الإمساك»[1].

---

[1] ح٣ ص٣٦٧.

وفي هذا مغالبة للطبيعة البشرية، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والإمساك، وإنما يحاول الغزالي أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس، وهو أمل بعيد.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الطريق إلى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالي البدن مثالًا للنفس: فكما أن البدن إن كان صحيحًا فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة، وإن كان مريضًا فشأنه جلب الصِّحَّة إليه، فكذلك النفس: إن كانت زكيةً طاهرةً مهذبةً فينبغي أن تسعى لحفظها. واكتساب زيادة صفائها. وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن، الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها: فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب، علاجها بضدها: فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفًا. وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، بل أولى؛ لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبدا الآباد(؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والغضب، والدوام وعدمه، وبالكثرة وبالقلة، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد، فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها، أهي ضعيفة أم قوية، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن، وأحوال الزمان، وصناعة المريض، وسنه، وسائر أحواله ثم يعالج

بحسبها؛ فكذلك الذي يطيب نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليه بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج معي المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد، وفي حاله، وسنه، ومزاجه، وما تحتمله نفسه من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته.

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالي بعلاج الأخلاق، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب في ذاك الزمان[1].

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص. وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال. وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء، فقد يولد السؤال أمراضًا في النفس تحتاج في اقتلاعها إلى مجاهدة وعناء، ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح!!

---

[1] انظر: ص٦٤، ٦٥ ج٣ إحياء. وص٧٧: ٧٨، ٧٩ من الميزان.

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير، والشر هو ما تعتقد أنه شر؛ والسبيل إلى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع ولكن ما هي الغاية من عمل الخير؟ وما هو الغرض من تجنب الشر؟

غاية الأخلاق –فيما يرى الغزالي– هي السعادة الأخروية وقد فصل هذا في الفصل الأول من «الميزان» ويقول في ص١١٧ من هذا الكتاب: «إن السعادة الحقيقة هي الأخروية، وما عداها سميت سعادة، أمَّا مجازًا وأمَّا غلطًا، كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة. وأما صدقًا، ولكن الاسم على الأخروية أصدق، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها. فإن الموصل إلى الخير والسعادة، قد يسمى خيرًا وسعادة(؟!)»

وهذا يدل على أن الغزالي ليست له غاية اجتماعيَّة: فالذي يسعف مريضًا، أو يغيث ملهوفًا، أو يأسو جريحًا، أو يواسي فقيرًا، لا يهمه شفاء المريض، ولا إغاثة الملهوف، ولا برء الجريح. ولا سد حاجة الفقير، ما دامت نيته قد خلصت في عمله، ووثق بجزاء الآخرة! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي سعادة مجازيَّة، وواجب المرء أن يفهمها كذلك. وله أن يعدها سعادة نسبية، على معنى أن ما يوصل إلى السعادة الأخروية قد يسمى خيرًا وسعادة!! وقد نص في ص١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفًا؛ لأنه لم يقصد بعفته وجه الله، فكل عمله تجارة، وترك حظ لحظ يماثله!!

ونسأل الغزالي سؤالين اثنين:

أولًا: إذا أسعفت مريضًا وكان لا يهمك برؤه؛ لأن سعادتك ليست نتيجة لمسعاك في هذه الدنيا، وإنما يهمك أن تصح نيتك فتثاب في أخراك، ألا تكون تاجرًا في غايتك الأخلاقية؟

ثانيًا: إذا تركت الزنى توفيرًا لكرامتك أو لصحتك، كيف لا تكون عفيفًا، ولماذا طلبت العفة، ودعا إليها الشرع؟ أليس ذلك لأن فيها حفظًا للصحة، وتوفيرًا للكرامة؟ وإذا كنت تتخذ العقل مقياسًا للخير والشر، فخبرني أيجد العقل ما يحكم به على ضرر الزنى وأنه شر أكثر من أنه مود بالصِّحَّةِ، ذاهب بالكرامة؟

ونعود فنذكر أن الغزالي سخر ممن يرون السعادة الأخروية في نعيم الجنة، وما فيها من الحور والولدان، وإن نطق بذلك الكتاب، ورأى أن سعادة الآخرة هي رضاء الله. أفلا يصح قياسًا على هذا أن نعد الطمع في السعادة الأخروية عند إغاثة الملهوف، وإسعاف الجريح، ينافي ما تسمو إليه الأخلاق، وأن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته في سعادة من أغاثه وواساه، لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة، وإن لم تثمر أعماله في الأولى؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالي للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطئ في فهم كثير من أسرار الشريعة، ففريضة الحج مثلًا يحسبها الغزالي نوعًا من الرياضة الروحية، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الإحياء بالأدعية والأوراد، حتى لتجد لكن خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصًا بها، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى: {ليشهدوا منافع لهم}[1] إذ تراه يستكثر أن يحج المرء لينتفع بموسم التجارة!

---

[1] سورة الحج: ٢٨.

ونظرة صغيرة إلى حرص الشريعة على وحدة المسلمين، ترينا السر في فرض الحج على من استطاع إليه سبيلًا؛ فالتجارة التي تنبه إليها الغزالي ثم استنكرها، ليست شيئًا بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حجاجهم، وينفض كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدوليَّة، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر. ولكن الغزالي يرى العمل كله في العبادة المجردة، ويرى الجزاء أيضًا عبادة مجردة، وكثيرًا ما نص الصوفيَّة على أن لذائذ الجنة ليست مادية، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل؟!

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق

قرر الغزالي حين تكلم في التربية أن قلب الطفل «جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما ينقش عليه، ومائل إلى كل ما يمال به إليه. فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة. وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك» ص٧٧ ج٣.

وهذا يدل على أن الغزالي يرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء، وأنه ليس لها قبل التربية أي لون. فالخير إذًا يكسب بالتربية. والشر يكسب بالتربية. وليس للإنسان بفطرته ميل خاص: لا إلى الشر، ولا إلى الخير، وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم إليه أبواه ومعلموه.

ويؤيد هذا قوله في تهذيب الأخلاق «وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلًا صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل. وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملًا، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم» ص٦٤ ج٣.

ولكنا نجد الغزالي يقرر في ص١٢٧ من «الميزان» أن النسب الديني أمارة الديانة وحسن الخلق؛ لأن العرق نزاع. ونجده كذلك يحض في تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال «فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه،

فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث» ص٧٧ ج٣.

وهذا صريح في الحكم بوراثة الأخلاق، إذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعًا من الأدب والتدريب، إذ كانت تسبق الإدراك والتمييز. يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل إلى الحياء، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه. ومن الواضح أنه لو كانت الفطرة جميعًا خالصة من كل الميول، لكان واجبًا أن يغرس الحياء في الطفل بالتربية والرياضة. لا أن ينمى، إذ لا ينمى غير الموجود.

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين في وراثة الأخلاق. فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش، وقابلة لكل صورة، يحكم بأن الأخلاق لا تورث. وحين يدعو إلى أن ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالي لم يعن بهذا البحث، لذلك كان كلامه فيه متناقضًا، غير محدود. ولو أنه عني به عناية خاصة لبين لنا أن الأخلاق تورث، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة. فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس؛ لأن الأخلاق التي يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة، والطباع التي يرثها المرء من أبويه لا تعاوده إلا عند خمود مزاياه التي كسبها بنصح أساتذته، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار.

إذًا لا تناقض في كلام الغزالي إلا من حيث الظاهر. فهو يقول بوراثة الأخلاق في ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك، وإن كان يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس.

obeikandl.com